أحمد حسن الزيات

في ضوء الرسالة

ألوان من الأدب والتاريخ

الطبعة الأولى

١٩٦٣

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر بالفجالة
١٨ شارع كامل صدقي

أوّلُ ما عَرفتُ الشّنقيطى..

— ١ —

كنت فى مولد هذا القرن غلاما ناشئا أهوى الأدب وأحفظ الشعر وأعالج القريض . وكان مجلسى المختار يقع فى الركن الغربى من الرواق العباسى بالأزهر ، فى رفقة من الطلاب كانوا كأنجم الثريا لا يفترقون لا فى الدرس ولا فى المذاكرة ولا فى الرياضة . وكنا على خلاف إخواننا الأزهريين فى ذلك العهد نقرأ الصحف ونغشى الأندية ونتتبع المعارك الأدبية فى الضياء لليازجى ومصباح الشرق للمويلحى، و«المؤيد» لعلى يوسف . وكان حديثنا وحديث المتأدبين يدور على ماتتناقله الأفواه وتتداوله الصحف من الجدل المضطرم الحاد بين الحافظ الحجة الشيخ محمد محمود الشنقيطى وخصومه من علماء الأزهر وأدباء العصر . وكان الشيخ قد هاجر منذ قريب من مدينة الرسول إلى قاهرة المعز فوجد من الإمام محمد عبده لقاء جميلا وعطفا كريما ، فأجرى عليه رزقا من الأوقاف ، ووكل إليه إحياء الأمهات العربية الكبرى ، فنشر المخصص وحرر القاموس وأملى الأراجيز ، وإلى ذلك يشير فى رثائه لنفسه من قصيدته الميمية المطولة :

تذكرت من يبكى على فلم أجد ... سوى كتب تختان بعدى أو علمى
وغير الفتى المفتى محمد عبده ... صديقى الصدوق الصادق الود والكلم
فمُصم العلوم كنت أرحلها له ... إذا اعتاصت ارواها على كل ذى فهم
مخصصها المطبوع يشهد مفصحا ... بحفظى عند الحذف والبتر والخرم
بذا يشهد المفتى وأصحاب طبعه ... ولا يكتمون الحق كتمان من بكمى

وقاموسها المشهور يشهد فى الضحى   بذاك وفى بيض الليالى وفى الدهم

وكان الأزهر قد درج طويلا على إغفال اللغة والأدب من مناهجه حتى أدخلهما الأستاذ الإمام فى الدراسة الحرة ، وجعل دراسة اللغة للشيخ الشنقيطى ، ودراسة الأدب للشيخ المرصفى. وكان ابن التلاميد آية من آيات الله فى حفظ اللغة والحديث والشعر والأخبار والأمثال والأنساب لا يند عن ذهنه من كل أولئك نص ولا سند ولا رواية . وكان شموس الطبع حاد البادرة قوى العارضة ، يجادل عن نفسه بالجواب الحاضر والدليل المفحم واللسان السليط .

كان لا ينفك يتحدى رجال اللغة بالمسائل الدقيقة والنوادر الغريبة مستعهنا على جهلهم بعلمه ، أو على نسيانهم بحفظه ، حتى هابوا جانبه وكرهوا لقاءه ، وأصبحت حياته سلسلة من الخصومات الأدبية سجلها بالشعر اللاذع والنثر القارص فى كتابه (الحماسة) . وأكثر هذه الخصومات كانت بينه وبين أحمد البرزنجى فى المدينة ، والنيفر فى تونس [1] ، وحمزة فتح الله وإبراهيم اليازجى وسليم البشرى وعبد الكريم سلمان فى القاهرة .

اجتمع ليلة الاحتفال بالمولد النبوى الشريف فى دار السيد عبد الباقى البكرى بجماعة من كبار العلماء يتصدرهم إمام المالكية الشيخ سليم البشرى . فخلا لبعضهم أن يتحرش به فسأله سؤال المنكر عن رأيه فى صرف عمر وخروجه على إجماع النحاة ، فقال له : إنما صرفته بالأدلة القاطعة والشواهد الصريحة ، وخطأت جميع النحويين من سيبويه إلى ابن هشام فى قولهم إن عمرا ممنوع من الصرف لأنه

---

(١) كان موضوع الخصومة بينه وبين أديب المدينة وعالم تونس أنهما لحنا الامام مالكا رضى الله عنه فى قوله فى باب النذور من موطئه :(وعليه هدى : بدنة أو بقرة أو شاة ان لم يجد الا هى) فهما يقولان : إن مقتضى الظاهر أن يقول : ان لم يجد الا اياها ، وهو يقول: إن وجد معنى غنى من الوجد وهو الغنى فلا تحتاج الى مفعول ، وقد أفردوا فى المسألة مؤلفين، مؤلفا لهما ومؤلفا له .

معدول عن عامر ، والحق اليقين أنه جمع لعمرة وهى الحج الأصغر ، وبه سمى عمر ابن الخطاب ومن قبله ومن بعده ، فهو علم منقول عن جمع نكرة ، وما كان كذلك من الأعلام صرف اتباعا لأصله ، ككلاب وضباب وأنصار وأعمار ، وجمعت من الشواهد على صرف عمر مائة شاهد ونيفا ، منها قول كعب الأشقرى :

ياأيها الزارى على عمرٍ قد قلت فيه غير ما تعلم

ومنها قول بشار العقيلى :

إذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها عمراً ثم نم

فقال الشيخ عبد الكريم سلمان : ولم لا يكون التنوين فى بيت بشار للضرورة ، وتكون الرواية فى بيت كعب بالفتح الممدود لا بالكسر المنون ؟ فقال له فى حدة عصبية ولهجة مغربية : إنك بالعروض أجهل منك بالنحو ، ومثلك لا يناقش ! .

فهم بالرد الشيخ سلمان، ولكن الشيخ البشرى مال بالنقاش إلى جهة يراه القوم فيها واحداً الآحاد وهى السنة . فقال الشنقيطى : إنك تلبس خفين أسودين وذلك من لباس النصارى . فقال له إنما ألبس ما كان يلبس الرسول . أما أنتم فتلبسون الخفاف الحمر وهى لباس نساء المغرب ، والخفاف الصفر وهى لباس نساء المشرق ، فأنكر البشرى أن يكون الرسول صلوات الله عليه قد لبس خفين أسودين ، وقال إن الإجماع منعقد على خلاف ذلك . فرد عليه بأن رواية الأثبات تثبت أن النجاشى أهدى إلى الرسول خفين أسودين فلبسهما . ثم انفجر عليه بما روى الترمذى وابن ماجه وأبو داود والبيهقى ، يؤديه عن ظهر قلبه كأنما كان يتلو من كتاب . فلم يجد الشيخ البشرى رحمه الله درءا لهذا السيل إلا أن يطعن فى الرواية والرواة ، وانتقلت المجادلة من دار البكرى إلى دور الصحف ، فكتب الشيوخ . ورد الشيخ ، واستطار بينهم الخلاف أكثر العام فسماه الناس « عام الخفين الأسودين ».

— ٢ —

ترامى إلى مجلسنا بالرواق ذات ليلة أن الشيخ الشنقيطى قد نشر كتابا سماه (الحماسة السنية ، الكاملة المزية ، فى الرحلة العلمية الشنقيطية التركزية) صدرها طولة له فى خمسة ومائتى بيت من بحر الطويل وقافية الميم مطلعها :

ألا طرقت مىّ فتى مطلع النجم غريبا عن الأوطان فى أمم العُجم

روى فيها حديث سفره إلى مدينة استوكهلم عاصمة السويد إجابة لدعوة ملكها أسكار الثانى ليشهد مؤتمر المستشرقين الثامن الذى اجتمع بها فى سنة ١٣٠٦ هـ ، فوصف الرحلة ومدح الداعى وذكر جملة من أمر حياته ورحلاته وتحقيقاته ، ثم ختمها برثاء نفسه وسردٍ لأسماء أشهر القبائل العربية جريا على المنهج الذى اقترحه عليه سفير السويد بمصر الكونت كارلودى لندبرج ، وهو مستشرق سمى نفسه (عمر السويدى) ونشر بعض المخطوطات العربية كشرح ديوان زهير للأعلم الأندلسى الشنتمرى . وكان الشيخ يومئذ فى الآستانة فسافر إليها ليلقاه ويدعوه . فشرط عليه الشيخ بعد إذن الخليفة عبد الحميد الثانى أن يصطحب ثلاثة من علماء العربية ومؤذنا من المتعلمين وطاهيا من المسلمين . فأجابه إلى ماشرط . ولكن الرحلة لم تتم لأسباب يعرفها قصر الخلافة .

كان الشيخ لا يبيع هذا الكتاب وإنما كان يهديه إلى من يحسن القراءة فيه من طلاب العلم أمامه . وكنت فى ذلك الحين هش العود لا أظننى أثبت على عجمه ! فتفاديت ذلك الحرج بنظم قصيدة فى مدحه من بحر قصيدته وقافيتها . ثم حملتها متوكلا على الله وذهبت إليه . وكان صديقى الطيب الذكر محمودِ حسن زناتى قد سبقنى إليه فأثبت قدرته وأخذ نسخته . فصحبنى إلى داره وقت الأصيل — وكانت بأول شارع الباطنيــة من حى الأزهر — فدخلناها فإذا هى دويرة ذات طابقين

صغيرين ونصف طابق فوق السطح كان يسكنه هو وزوجه وخادمه . صعدنا إليه في درج براه الزمن وعوجه فلا تستقر عليه قدم . ودخلنا عليه ردهة غير مسقوفة انسدلت على نافذتها ستارة فلا تطّلع على غيرها عين . كان جالسا على فروة بيضاء فوق كليم انبسط على نصف المكان وانتثرت على حواشيه بعض الأدوات المنزلية .

لم أكن رأيت الشيخ من قبل . كان شخصا ينصرُ كما يقولون في صرة : هيكل ضئيل ، وبدن نحيل ، ووجه ضامر ، ولون أخضر ، وصوت خفيض . فمن يره أول مرة لايصدق أن هذا الجرم الصغير قد جاب البر والبحر ، وطاف الشرق والغرب ، وكافح الأنداد والخصوم ، ووعى صدره الضيق معاجم اللغة وصحاح السنة ودواوين الشعر وعلوم الأدب . وكان يلبس قفطانا أبيض من القطن ، ويرتدي جبة دكناء من الصوف ، ويعتم عمامة مكية قد أرخى لها عذبة على ظهره. فلما رآنا هش بعينه وبش بفمه ، فقبلنا يده ثم جلسنا بين يديه . كان كل ما في الردهة يرف بالهدوء ويشف عن النظافة ، فلا حس ولا حركة ولا هباءة إلا مايقع في أسماعنا من أصوات الباعة على بعد. وكانت الخادم الحبشية العجوز قد أقبلت في سكون وأدب بأكواب الشاي الأخضر فشربنا . ثم أخرجت القصيدة من جيبي وأخذت أتلوها في رجفة خفية وهيبة ظاهرة ، والشيخ يستمع ولا يظهر على مخايل وجهه البرنزي ماينم على استحسانه أو استهجانه ، حتى بلغت إلى قولي منها :

رفعتَ دِرَفْس الدين بالعلم والتقى   وصنت لسان العُرب بالحفظ والفهم

فقال : ما الدرفس ؟ قلت : الراية . فقال : أتحفظ شاهدا عليها ؟ قلت : نعم ، قول البحتري :

والمنايا مواثل وأنو شر   وان يزجى الصفوف تحت الدرفس

فقال : أحسنت ، بارك الله فيك . وانتهت التلاوة والزيارة بأخذ النسخة . ثم لزمته بعد ذلك إلى أن فارقنا إلى لقاء ربه .

لزمته أنا وأربعة أو خمسة من الرفاق فكنا نصلى معه الجمعة من كل أسبوع فى الجامع الأزهر . ثم نجلس أمامه بالجانب الأيمن من المنبر فنقرأ عليه ساعة وبعض الساعة ثم ينصرف إلى داره ، قرأنا عليه كتابه (الحماسة) ثم ديوان المعلقات . وكانت طريقته فى التلقين أن يعنى بدقة الضبط وصحة الرواية ، فلا يشرح لفظا ولا يفسر معنى إلا إذا سألناه .

ومن النوادر التى أذكرها أن طالبا ممن كانوا معنا كانت فيه سذاجة وغفلة . وكانت إحدى عينيه مظلمة . وكان أحدنا يقرأ مطولة الشيخ الأولى وفيها قوله :

إلى مثلها يصبو الحليم صبابة

فقال الطالب : إن هذه الشطرة مسروقة من معلقة امرىء القيس . فقال الشيخ فى غضب وحدة : المسروقة عينك العوراء ! إن للعرب أبياتا وأشطارا شاعت شيوع الأمثال فلكل شاعر أن يستعملها كقولهم .

وقوفا بها صحبى على مطيهم . وقولهم ، تبصر خليلى هل ترى من ظعائن . وقولهم : فدعها وسل الهم عنك بجسرة ، وهذا من ذاك .

كذلك أذكر أن الشيخ كان كلما انفلت من صلاة الجمعة دعا بالشيخ إمام السقا خطيب الجامع الأزهر فى تلك الأيام ، وكان رجلا طاهر القلب ظاهر الورع . فإذا جاءه أخذ يعنفه أشد التعنيف على اقترافه الكذب على الرسول بما أورد من الأحاديث الموضوعة فى خطبته . ثم لا يخليه حتى يستغفر الله ويتوب .

فلما تكرر هذا الموقف كان الشيخ السقا يتحاشاه فلا يكاد يخرج من الصلاة بالتسليم حتى يخرج من المسجد بالركض !

رحم الله الشيخ ومن جرى ذكرهم معه من الشيوخ ، وجزاه الخير وجزاهم على ما قدموا للغة القرآن وفقه السنة وعلم العربية من حسن القول وإخلاص العمل وصدق الغيرة .